الشاعر المتفائل فرناند غريك

بقلم خليل هنداوي

غريب امر هؤلاء الشعراء في امزجتهم المتباينة حين يقبلون على الحياة ، فهذا شاعر يُرقص الحياة بأهازيجه ، ويشع الجوانب الفاتنة منها .. وذلك شاعر يشك في النغمة الصافية التي تطربه ، واللون الصافي الذي يحببه .

ولكن ، أليس هذا المزاج نفسه هو الذي يعبث بالمخاليق البشرية نفسها ، فهناك المتفائل الذي يفكك بطبعه المرح عُقد الحياة، ولا ينظر الى الاشياء المعقدة الا نظرة امل واستبشار. وهنالك المتشائم الذي يجعله طبعه الاسود لا يغتنم الفرصة الحسنة، لأن على خطاه التردد والحيرة،ودربه يسوده الضباب والتشاؤم. وجدير بمثل هذه الحياة ان تؤلم اصحابها . وجدير باصحاب هذه الحياة ان يتوارَوا ، لأنهم يشوّهون وجهها ، ويخلطون نغماتها بالنواح والعويل .

على ان هذا ليس معناه ان الآلام مفقودة في الحياة ، او ان الحياة موضع بهجة محضة ، وسرور خالص . ولكن ما أحرانا بألا نرى في ثياب العرس أكفاناً ، وألا نسمع في غناء الحمامة نحيباً . واذا سبق لذهنٍ ما هذا التوهم،فذلك الذهن هو المريض بتشاؤمه ، وليست الحياة هي المريضة .

في الادب والفن حناجر وأنامل مريضة ، يحركها هذا الشذوذ المريض، فيسيء اليها، وان لم يكن يسيء الى عبقريتها، كما ان في الادب والفن حناجر صافية ، وانامل خيِّرة ، تضع الالوان في مواضعها ،.وترسل الالحان الملائمة في محالّها .

هنالك شاعر غربي طالما قرأته ، وألفته نفسي ، وكان شعره صدىً عميق في صميمي ولا أدري : لماذا أحببته ؟ ولا أدري : كيف أعلل اسباب إقبالي على هذا الحب ؟ ألأنه كان متفائلاً في الحياة؟ام لأنه كان مؤمناً بجمالها ، متحدياً آلامها ، ام لأنه كان كل ذلك ؟.

هذا الشاعر هو «فرناند غريك» صاحب ديوان « جمال الحياة » الذي امتزجت فيه شاعريته وفلسفته في الحياة ، ثم تلاه دواوين على شاكلته ، ودراسات عميقة .

ومن المفيد ان نذكر ما كتبه عنه كبير النقاد « اميل فاجيه » : ان شاعرنا هو كآبة الحياة التي تجود نادراً — عصراً بعد عصر — برجفة واحدة نحو الحب او المجد . وإنها لرجفات جميلة حقاً ، فان أغاني الحب عند شاعرنا تكاد تُعد نادرة . جمعت بين إنسانية الصدق والرقة . لا الى الحساسية العنيفة ، ولا الى العاطفية الثرثارة . حتى اذا انتقل من الحب ، وحركته هزة المجد خُيّل اليك انك امام رجل آخر يختلف عن الاول اختلافاً بيناً ، يترك في نفسك أثراً غير الأثر الاول » .

ولشاعرنا مفهوم اسمى للشاعرية ورسالة الشاعر،عبر عنه بمقالة نقدية ممتازة،نستشهد بعدة مقاطع منها .. « إن ما ينقص الشعراء الفنانين الخاضعين لنظرية الفن للفن هو « الانسانية » .إنهم لا يريدون ان يكونوا إلا فنانين ، كأنهم لم يدروا ان ما يهمنا في الفنان قبل فنه : ان يكون انساناً . فالانسانية هي الصلة التي تربط ما بينه وبين الناس. ولذلك نطلب فناً اوسع مدى، واخفق قلباً ، وأرقّ ، وآنس . وبصورة موجزة نطلب « فناً انسانياً ! » وشعراً يعبر به الانسان عن عواطفه وافكاره لا حواسه وحدها !

«ان كل الشعراء العالميين في كل عصر من العصور كانوا فنانين، وانسانيين في وقت واحد ؛ أي كان منهم آباء وابناء وأحباء ، وفلاسفة، ومؤمنون. من حياتهم نفسها نسجوا خيوط احلامهم. ولذلك يجدر بنا بعد مدرسة الجمال للجمال ومدرسة الجمال للاحلام، ان نبني مدرسة الجمال للحياة نفسها .

«نحن لا نحمل على « الرمزية ». ولكن ليكن الرمز واضحاً . فالرمز المظلم مهما كان جميلا — مثله كمثل قارورة طيب ليس لها مفتاح. والشعراء السابقون استخدموا الرموز ، ولكن كان وراء رموزهم — دائماً قلوبهم الانسانية .

«لقد تعبنا من شعر لا عاطفة فيه ، ومن شعر يدور بدون

« غنّوا الحياة ايها الشعراء ! وليقل كل انسان منا ، حين يُلقي نظرته الأخيرة على ما أبدعه قبل ان يتوارى في المجهول : « انني انسان ، وليكن ما يكون بعد الموت، فلست بخائف ، ولتسطع اية شمس جديدة ، فانني سأراها محدّقاً فيها ، دون ان يُعميني النور ، او يقذيني الظلام لأنني عشت انساناً ! » يا شعراء اليوم والغد ، ويا أهل كل إبداع ، كونوا انسانيين ! »

انسجام . إننا لسنا برمزيين ، ولا بشكوكيين ، ولكنا بشر مغموسون في الحياة ... لا رمز لنا الا الوصول الى الآفاق الانسانية البعيدة التي جلتها الفلسفة حينا، والدين والاخلاق حينا.

«فيا ايها الشعراء غنوا الحياة ! هذا هو شغلنا فيها، ولنكمل رسالتنا على الارض ؛ هذه الرسالة هي ان نبني — بكلماتنا الجميلة — ذلك الحلم الذي ينسجه الانسان ، في هذه اللحظة من الزمان لكي نحمله الى من سيلوننا . وليقل كل انسان منا ، حين يلقي نظرته الأخيرة على ما أبدعه قبل ان يتوارى في المجهول : « إنني انسان ، وليكن ما يكون بعد الموت ، فلست بخائف. ولتسطع أية شمس جديدة ، فانني سأراها محدقاً فيها ، دون ان يعميني النور ، أو يقذيني الظلام ، لأنني عشت انساناً ! » يا شعراء اليوم والغد ، ويا أهل كل إبداع ، كونوا انسانيين! »

ظل فرناند غريك أميناً لمبدئه وانسانيته في كل ما وهب ، أميناً للحياة فيما أعطى . إنه اراد أن يبهجنا ويغرينا بان نكون في الغابة النامية صوتاً هارباً ، لكنه موقّع ، وورقة زائلة لكنها متواضعة نافعة. وأراد ان نحيا حياتنا هذه بكل ما أوتينا من عزم وقوة لان رسالتنا هي استخراج كل ما تنطوي عليه الحياة من مفاتن فنية ، وعقلية وأدبية !

لذلك حاول هذا الشاعر ان يضع في ديوانه « جمال الحياة » قصة برهة محدودة من حياته ... بحبها وعذابها . اذ ليس معنى جمال الحياة عنده انه لم يذق الآلام العنيفة ، فقد ذاقها كما ذاق الأفراح العميقة . تذوّق كل شيء يمكن ان يمر بالانسان . إنه لم يذق دائماً بهجة الحياة ، ولكنه احسّ دائماً جمالها . واعتقد بان الحياة التي لم تكن — في كل حين — بشيء حسن تبقى — كلّ حين — شيئاً جميلاً . ومن جمالها هذا ينحدر الى النفس إيمانه بحسنها وخيرها .

هذه قطعة له عنوانها « أشرعة على البحر » ! لقد رأى شراعاً ممدوداً يتخبط على أمواجه . وتمثل حياة البحارة تحته ، فخاطب نفسه :

« إمضِ اليهم ! وكن معهم .. اعمل وتألم ، وكافح بدون نهاية ، متلاشياً في هوة الحياة العميقة ، ونل خبزك بعرق جبينك . ولكن ليكن كل هذا بعيداً عن الجمال ! »

وعاد مرة الى البيت الذي نشأ فيه ، فماذا وجد ؟..

« إني لأوقظ في كل زاوية من زواياك الساكنة ،
صدى يجيب كل خطوة من خطاي

لا يزال الماضي الذي خيّل الي أنني نسيته — يحيا !
وكل شيء فيك ، ايها البيت المنعزل ، يحيا متشابهاً .
على انك لست بالبيت الذي يحبني !
وبالرغم من جمال اللقاء ، أشعر على عتبتك بغيبة مفاجئة
وأشعر انك لم تتغير ؛ وأشعر أنك لست نفسك ! »

ويمرّ شاعرنا بالكئيب الذي يدور وحده ، والوجود يدور بالقرب منه بعيداً عنه ، فيواسيه ، ويوقظ في نفسه شعور الحياة والانطلاق :

« أراك ، هذا المساء ، شرهاً الى البكاء ،
فما يُبكيكَ أيها الحالم الناقم ؟
أي همّ ألمّ بك ، وفيمَ آثرت البكاء على الغناء هذا الليل ؟
أنصِت اليّ قليلاً !
الريح تعبث بالأشجار وظلالها ، ريح تفتق الأزهار ، وتفشي الأسرار ..
تمرُّ على شفاه الورود والزنابق ، قبل ان تغازل شفاه العابرين .
تعال معي تروّحْها .
فلماذا لا ترى إلا نفسك ؟ ألا تتأمل في الليل الذي يشبهها بصفرته النقية ؟
تعال ! لا تبق منعزلاً ، هناك ، تحلم بكثير من الاشياء ، وترسل التلهف والتأوه .
ان الريح قد مسّت الورود ، وهي عابرة ...
فتنشّقْ شذا هذه الورود البعيدة ! »

من جمال هذه الحياة يستمد شاعرنا ألوانه ، وتفاؤله ، وانسانيته وعناقه للنور ، ولذلك آثر ان يطوي الجراح في نفسه عن نفسه ، او يعلن جمال النور للانسان الذي يؤمن به والحياة التي يهزه جمالها .

لنستمع اليه في مقطوعة له اسماها « رجفة » تمثل روح ثائر يتقدم من الحياة غير هياب لانه يحبها :

« ألا تنحّيْ بعيداً عني ! ايتها الهموم والآلام والشكوك!
اريد ان اتبع نفسي المغامرة إلى حيث تسلك امامي ، في روض نيّر النوّار !
سأخطو حتى منتهى الطريق المجهول ، دون ان يخيفني الضباب والسحاب .
لن يقول الحظ : — إنه فهرني !

سأرفع رأسي ، واتجه نحو المعركة كأنني مقبل على عيد !
وليقولوا عند موتي : « ماذا يضيره ؟ انه قد عاش »
ألا ايها القدر العظيم لستَ انتَ بالأشد مني مِراساً
انني أتحداك
كل انسان ، لو اراد ، كان سيد قدره
وكلٌ إنما ينسج حياته بيده ! »

وفي قطعة « مولود جديد » يحاول ان يجدد بها نفس صاحبه في ليلة مرحة ، ابتهج فيها الناس ، وهو وحده غلبت عليه الكآبة ، فيدعوه إلى الخروج والتمتع بضياء هذه الليلة :

« يخيَّلُ إلي ان المدينة ولدتها الشمس !
كل سقف من سقوفها يعكس لنا مرآة متوهجة الضياء
إذهب ! فبالرغم من الكآبة التي اغرقتَ نفسك فيها ، فان كلمة الحياة الاخيرة هي للفرح دائماً . فاسكر اذاً ، بالهواء والضياء ! »

ولا نستطيع إلا ان نُعرِّج على مقطوعة حية له لعلها تمثل روح الشاعر ، وتعبر عن تفاؤله اصدق تعبير .. هذه القطعة هي « فرح » . وقلما رأيت شاعراً يتغنى بهذه الكلمة مندفعاً صادقا ، لأنه لا يؤمن بالفرح ، وإذا آمن به أذن له بان يمر به طيفاً عابراً ، لا يُلقي عنده عصاه :

« إني شربتُ لون السماء ، فوداعاً ايتها الهموم والاحزان !
لم يعد من ظل قاتم في نفسي ، ولم يعد من دمع في مقلتيّ !
كل شيء : مشمس ، وسعادة ، ونور
نعم ، اننا نحيا ، ويا اسفا ، في ظل لحد قاتم ،
ولكن ، كيف نعتقد بالشقاء حين يكون الوجود جميلاً ؟
الحقيقة .. الحقيقة الحقيقية عندنا جميعنا : من محبين وحالمين ، وعلماء وقُرناء ، هي اننا نبحث — خلل خصائصنا المتعددة — عن الحقيقة الخفية دائما ، الهاربة منا ابداً ..
وكلٌ بحسب مزاجه يبحث عنها في نجوم السماء ، او عيون النساء ..
الحقيقة الاولى تبدّت لعيني : هي ان الحياة جميلة . اني أحس جمالها ، وألمسه . فحذار مني ايتها الهموم والاحزان ..
إذ لا حقيقة هنا إلا للفرح ، فأحبّ الازهار ، وهِم في الجمال ، واتبع الآمال ،
واقض حياتك محباً لكل شيء ، واسكر بمحبة الحياة
وإذا جارك الموت فمت هادئا ، باسما للقدر
مبارحا الحياة ، متقبلاً الموت
ولا تقلق كثيراً ، فاللغز الوحيد في العالم هو قلقك ... هذا القلق يجعل سعادتك غير مستقرة .
كل شيء هنا : مضيء وهاج ، واضح لعوب .
فكن ذلك الطفل الذي يثرثر بدون نهاية : امام البحر ، والمساء ، والسحب الهاربة .
وكن ذلك المجنون يبتسم للازاهير ، والامواج ، والسماوات
وكن كذلك الذي ضيع السكر رشده ... »

ومن هذه المقاطيع الرائعة « سهرة » يحاول فيها ان يعتقد بأن الحياة لا تنقطع ، وان الموت ليس الا ضجعة : « كم من ليال سهدتها ، ايها الحالم ، وانت نشوان بافكارك ناثراً — هنا وهناك — كلمات ، وكلمات دائما ! تريد ان تحلم ايضا في الليل ، لا تشعر بزوال الساعات ومتاعب الغد الآتي .
ايها الشعراء . هنالك غريزة فريدة تجبرنا على ان نضحي ففيمَ الشكوى من رسالتنا السامية ؟
انما نحن مختارون لا ضحايا ...
أليس عظيماً ان يموت الواحد منا مجهولاً ، منعزلاً ليترك خلفه مسحة جمال على الارض ؟ .
الا من هو الذي فتح خزائن اسرار الحياة ؟
الموت ؟ ماذا عسانا نعرف عنه ؟
لا .. إننا لن نموت ابداً ..
فبعدنا الاشياء الخالدة التي نتغنى بها ستحيا ابداً ، ونحن نصبح فيها امواتا ، لا غيابا عنها .
وربما ، في مساء جميل ، بعد عشرين عصراً ، يمر العابرون ؟ يقطفون الأزهار — الندية ، فيتنشقون ارواحنا فيها .
ورب حسناء عاشقة ، غرقت في ذهول الحب ، تقبل افواهنا على شفتي عاشقها .
إن انفسنا ستحيا مرة ثانية في جمال الوجود كما تمتزج اجسامنا في التراب العميق .
وإذ ذاك في امواج البحر ، وفي الغابات ، وفي الرياح ، سنكون — ونحن الموتى — اكثر حياة من الأحياء . »

ان شاعرنا ليبدو راضيا كل الرضى عن وجوده ، وما كان للقبح ان يغلب على الجمال . ولذلك يقول بلهجة الواثق المؤمن :
« على أني لن العن القدر ابداً ، ذلك النير القديم الذي تنحني تحته ظهورنا . او الرجال الذين شقوا ليكونوا صالحين ، ولا

— البقية على الصفحة ٧٦ —

« الشاعر المتفائل فرناند غريك » بقية المنشور على الصفحة ٢٧

الاله نفسه ، الجاني الحقيقي ، إذا كان . .

لماذا ؟ لأن كل ما يجرحني يسرني .

كم ذا أحب كآبتي مع قلب محب لي !

وكم تغدو الحسرة عندي خيراً من الأمنية !

أحب ، حتى آلامي التي أريد الشفاء منها .

وليكن قدري حسناً أو سيئاً كيف يشاء ! »

ولقد تستحيل هذه الصوفية عند الشاعر إلى مادية تجسد الحياة بحسناء يغرق فيها حتى تنسيه واقع الحياة نفسه . فهذا شاعرنا يدعو غادته في « نسيان » :

« هذا هو المصباح ، في الصمت الطويل ، من غرفتنا يرسل اضواءه باهرة .

. . . اطرحي ، على عنقي ، ذراعيك العاجيتين !

ولننسَ الشتاء القاسي وما حولنا من شقاء !

وأنتنّ ... يا رعشات الانتظار ، وتأوهات السرور

ويا حرارة الأيدي أوقدتها الرغبة ، وعطرتها طيوب اللذات

وأنتنّ ... أيتها القبلات تعالَيْن اهززن ضجرنا !

وامنحن قليلاً من الفرح نفوسنا المتعبة !

ودعنا ننسى ان العالم قبيح ! »

وقد تستولي على الشاعر غمرة من اليأس أحياناً ، فتجعله يشك في نفسه ، ويضجر من حياته ، لأنه لا يرى إلا الفراغ أمامه ، وكل ما يناديه سراب لا يروي ولا ينقع غلة ، فيطلب الارتواء ، والتعافي من الداء ، فيتساءل :

« هل أشفى ؟. أنت وحدك ، يا إلهي ! ، تعرف .

ولكن السماء جميلة في عينيّ ؟

فماذا أصنع أمام تجدد الحياة ؟

وماذا أجد هناك ؟ وأيّ حظ يكون حظي ؟

هل أرى ، قبل موتي العاجل أو الآجل ، أحلامي تتحقق ؟

وهل يأتيني من الحب أو المجد قليل من قليل ؟

وهل أغدو سعيداً ؟

ولكن العالم اللامتناهي اللامع ، ذا الأسرار يجذبني

ليكن ما يكون ! ما همّي من ذلك ؟

إنني قاذف بنفسي فيه ... أريد أن أحيا ايضاً ... »

هذا هو وجه شاعرنا المتفائل في الحياة ، وإني لأرجو ان اكون قضيتُ للحياة بعض ما يجب علينا من حقوق حيال جمالها الذي لا يفنى .

حلب — **خليل الهنداوي**

الكتب التي صدرت عن **دار القلم** في شهر نيسان ١٩٥٣

الحرب والسلام — الكتاب الأول

تأليف الكاتب العالمي : ليو تولستوي

هذه الدرة اليتيمة ، التي يشع سناها لأول مرة في اجواء اللغة العربية ، ويصور فيها تولستوي الجبار دقائق الحياة المترفة في روسيا القيصرية والهوة السحيقة التي كانت تفصل بين طبقة وطبقة ، ويتحدث فيها عن الحرب واسبابها وبشاعتها وما يلعبه الحظ من الدور الكبير في نتائجها .

ترجمة اميل خليل بيدس وقدم له الدكتور جورج حنا . تصدر بقية الكتب تباعاً .

١٢٠ صفحة — ٢٠٠ غ.ل

مع الناس

إنه الكتاب الاول من السلسلة الشهرية التي تصدرها رابطة الكتاب السوريين ، وهو مجموعة قصص ، بل مجموعة صور رائعة عن بسطاء الناس وكفاحهم لاجل الحياة ، تلك الصور التي اشتهر بها المؤلف الاستاذ حسيب الكيالي في قصصه .

قدم للكتاب مواهب الكيالي .

١٠٠ صفحة — ١٠٠ غ.ل

وعلى الأرض السلام

إنه السلام الذي يتمناه كل انسان والذي نص عليه الانجيل والقرآن . انه يفضح أساليب مشعلي الحرب وخططهم التي يتبعونها لنيل مآربهم في سبيل المتاجرة بالأرواح . كحلف الاطلسي والدفاع المشترك وعلاقة دوله اسرائيل بهذه القضايا مع بيان مفصل مدعوم بالأرقام والبراهين عما جرته وتجره الاحلاف العسكرية على الشعوب والامم من كوارث.

وضع الكتاب الخوري طانيوس منعم وقدم له الشيخ عبدالله العلايلي.

١٢٠ صفحة — ١٠٠ غ.ل

سنوات حاسمة

منذ عام ١٩٥١ دأب الكاتب السوفياتي الكبير ايليا أهرنبورغ على توديع العام الذاهب بتعليق عن الحوادث والذكريات التي جرت في ذلك العام

وكتاب سنوات حاسمة هو مجموعة التعاليق التي كتبت في بداية عام ١٩٥١ — ١٩٥٢ — ١٩٥٣ بالاضافة الى تعليق كتبه في الشهر الماضي واسماه سنوات حاسمة .

٦٤ صفحة — نصف ليرة

الحرب والسلم (ملحمة شعرية)

تصور فظاعة الحرب ومآسيها وروعة السلم وآفاقها الزاهية باسلوب شعري مشرق . وقد ترجمت هذه القصيدة الى اللغات الروسية والافرنسية والانجليزية والاسبانية والالمانية ، ولأول مرة تنشر في لغتها الاصلية العربية .

وضعها الشاعر العراقي ، كاظم السماوي قدم لها الدكتور جورج حنا .

٤٠ صفحة من الورق الممتاز — نصف ليرة لبنانية